﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ لبيان سنّةِ التّفضيلِ في الدّنيا

لمّا كانَ العطاءُ المبذولُ للفريقين هو عطاءَ الدّنيا، وكانَ النّاسُ مُفضَّلين فيه بمشيئةِ اللّه تعالى، وخطاب النّبيِّ ﷺ في بيان مسألةِ ديمومةِ عطاء اللّه، فقد ناسبَ في هذه الآية أن يُلفِتَ نظرَ نبيّه ﷺ لَفْتَ اعتبارٍ وتدبُّرٍ، ثمّ ذَكَّرَهُ بأنّ عطاءَ الآخرة أعظَمُ عَطاءً، وقد فضَّلَ اللّهُ به المُؤمنين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضَّلۡنَا﴾: جذرُ الكلمة هو (فضل)؛ والفَضيلةُ: الدّرجةُ والرِّفعةُ في الفضلِ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المؤمنون: 24]؛ معناه: يريدُ أن يكونَ له الفضلُ عليكم في القَدْر والمَنزلة[2]، والتّفضيلُ في هذه الآية أُريدَ منه بيانُ سنّةِ التّفضيلِ في أرزاق النّاسِ في الدّنيا.

2) ﴿دَرَجَٰتٖ﴾: جذرُ الكلمة هو (درج)؛ والدَّرَجَةُ في الرِّفعة والمَنزلة، وتُجمَعُ الدَّرَج، ودَرَجاتُ الجنانِ: مَنازلُ أرفَعُ من مَنازلَ[3]، الدّرجةُ نحوَ المَنزلة، لكنْ يُقالُ للمَنزلة: دَرَجةٌ إذا اعتُبرَت بالصّعود دونَ الامتدادِ على البسيطة، كدرجةِ السّطحِ والسُّلّم، ويُعبَّرُ بها عنِ المَنزلةِ الرّفيعة، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ [البقرة: 228]؛ وقالَ: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنفال: 4][4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 63.
(2) الخليل، العين: (فضل).
(3) الخليل، العين: (درج).
(4) الرّاغب، المفردات: (درج).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: انظرْ أيّها المُخاطَبُ نظرَ تأمُّلٍ وتدبُّرٍ واعتبارٍ في أحوال النّاس، لترى عن طريق المُشاهَدة؛ كيف فضّلَ اللّهُ تعالى بعضَ النّاس على بعضٍ في هذه الحياة، فهذا غنيٌّ وذاك فقيرٌ، وهذا قويٌّ وذاك ضعيفٌ، إلى غير ذلك منَ الأحوال الّتي تدلُّ على تفاوت النّاسِ في هذه الدُّنيا، على حسب ما تقتضيه إرادتُهُ، وحكمتُهُ، ومشيئتُهُ سبحانَه، أمّا في الآخرة فسيكونُ فيها النّاسُ على أكبر درجات التّفاضُلِ، والتّفاوتِ في الدّرجاتِ والمَنازلِ، ممّا كانوا عليه في الدّنيا[1].

تفاضلُ النَّاس في الدُّنيا تقريبٌ لمَشهد المُفاضلة في الآخرة

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فصلِ الجملة عنِ السَّابقة:

بين هذه الآيةِ والّتي قبلَها كمالُ الانقطاع؛ لأنّ الأولى خبريّةٌ، وهذه إنشائيّةٌ، وبينَهما اختلافٌ في المعنى، فالجملةُ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ مستأنَفةٌ، وهي انتقالٌ منَ الإخبار عنِ الأرزاق والعطايا إلى الأمر بالنَّظر في تفضيل النّاسِ بعضِهم على بعضٍ فيها، فهي كالدَّليل على الجملةِ السّابقة، وعليه فلنا أن نحملَ الجملةَ على الاستئناف البيانيِّ؛ كأنَّ سائلًا قد سألَ، وهل كان العطاءُ للجميع على رتبةٍ واحدةٍ؟ فجاء الجوابُ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

التَّفضيلُ بين النّاس في الأرزاق سنَّةٌ في العطاءِ غير المحظور

دلالةُ التّعبير بمفردةِ النّظر:

قولُهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ﴾ فعلُ أمرٍ، والفاعلُ ضميرٌ مُستَتِرٌ تقديرُه: أنت، والنّظرُ بصريٌّ؛ لأنّ التّفاوتَ في الدّنيا مُشاهَدٌ، و(كيف) في موضعِ نَصْبٍ بعد حذفِ حرفِ الجرّ؛ لأنّ (نَظَرَ) يَتعدَّى به[2]، ومآلُ

النَّـظـرُ بـابُ التَّفكُّرِ وطريقُ التَّدبُّر

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 321.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 29.

هذا النَّظرِ البصريِّ اعتباريٌّ، "ولمّا كان النَّظرُ مُفضيًا وسَببًا إلى العلم جازَ أن يُعلَّقَ، ويجوز أن يكونَ ﴿ٱنظُرۡ﴾ من نظر الفكرِ فلا كلامَ في تعليقِه، إذ هو فِعلٌ قلبيٌّ"[1].

غرضُ الأمرِ بالنّظر:

تنبيهُ المُخاطَبِ إلى عظيم شأنِ الله في عطاياه

الأمرُ طلبُ حصول الفعلِ على جهة الاستعلاءِ والتّكليفِ منَ الأعلى إلى الأدنى، هذا هو معناه الحقيقيّ، أمّا المعنى المجازيُّ الّذي خَرَجَ إليه الأمرُ في قوله: ﴿ٱنظُرۡ﴾ فهو التّنبيهُ إلى عظيم شأن اللّه تعالى، وأنّه لا تنفدُ خزائنُهُ لكثرة العَطايا لكلِّ فردٍ أو جماعةٍ منَ البشر، أيًّا كانَت أفعالُهُم، والأمرُ بالنّظر موَجَّهٌ إلى النّبيِّ ترفيعًا في درجات عِلمِه ﷺ، ويحصُلُ به تَوجيهُ العِبرَةِ إلى غَيرِه[2]، وقد خَرَجَ الأمرُ هُنا إلى معنى التّنبيه إلى عظيم شأنِ اللّه، والتّنبيه إلى عظيمِ سُنّتِه في الخلقِ والرّزقِ والتّقديرِ.

دلالةُ استعمال أداة الاستفهامِ ﴿كَيۡفَ﴾:

الإخبارُ بقصد التّنبيه والاعتبار

﴿كَيۡفَ﴾ لفظٌ يُسألُ به عمّا يصحُّ أن يُقالَ فيه شبيهٌ، وغيرُ شبيهٍ كالأبيض والأسود، والصّحيح والسّقيم، و﴿كَيۡفَ﴾ هنا إخبارٌ لا استفهامٌ، والفرقُ بينَهما أنّ الاستخبارَ قد يكون تنبيهًا للمُخاطَب أو توبيخًا بحسب السّياق، ولا يقتضي عدمَ عِلمِ المُستَخبر، والاستفهامُ بخلاف ذلك، وجاءَ في المفردات: كلُّ ما أخبرَ اللّهُ بلفظ (كيف) عن نفسِه فهو إخبارٌ على طريق التّنبيه للمُخاطَبِ أو توبيخٌ، نحو قوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 28] و﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ [آل عمران: 86][3]، وهي في قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ جاءَت للتّنبيه والاعتبار[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 63، والزّركشيّ، البرهان: 4/ 331.
(3) الرّاغب، المفردات: (كيف).
(4) الزّركشيّ، البرهان: 4/ 330 - 331.

دلالةُ التّعبير بالماضي في ﴿فَضَّلْنَا﴾:

التّفضيلُ عبارةٌ عن عطاء الدّنيا، فقد فَضَّلَ اللّهُ سبحانه بعضَهم على بعضٍ في الأرزاق؛ كأنّه قيلَ: في تفضيل شخصٍ على شخصٍ من كلا الفريقين. "فالمُرادُ التّفضيلُ في عطاء الدّنيا؛ لأنّه الّذي يُدركُهُ التّأمُّلُ والنَّظرُ، وبقرينةِ مُقابَلَتِهِ بقولِه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾"[1]، وجاءَ التَّعبيرُ بالماضي ﴿فَضَّلْنَا﴾ ليدلَّ على أنّ أقدارَ اللّهِ مُحققَّةُ الوقوع، مَرئيَّةٌ، يراها النّاسُ، واللّهُ يُقدِّرُ الأقواتَ والأرزاقَ للعبادِ جميعًا.

العطايا والأرزاقُ مُحقَّقةُ الوقوع، مُقدَّرةٌ عندَه سبحانَه

غرضُ إسناد فعل التّفضيلِ إلى الضّمير:

في إسناد فعلِ التّفضيلِ إلى ضمير العظمةِ في قوله: ﴿فَضَّلْنَا﴾ إظهارٌ لعظيم شأنِ ذلك التّفضيل الّذي لا يَقدِرُ عليه إلّا الخالقُ العظيمُ، فاختيارُ ضمير العظمةِ دون ضمير المُتكلِّم؛ لإظهار كمالِ العنايةِ بتلك الأقدارِ وعظيمِ شأن اللّه بتحقيق وعدِه لعبادِه بذلك؛ ثمّ إنّ إسنادَ الفعل إلى ضمير العظمةِ يدلُّ على معنى التَّحقُّقِ، فاللّهُ تعالى هو مَن تكفَّلَ بذلك التّفضيلِ، ونسبَهُ إلى نفسِه؛ لبيان شأنِ التّفضيلِ وتقديرِ الأرزاقِ للعباد، وأنَّه صادرٌ عن مَقام الرّبوبيّة.

مَقصِدُ تفضيلِ المَرزوقين في الأرزاق عظيمٌ لصدورِه عنِ العظيم

نكتةُ إبهامِ المُفضَّلِ والمُفضَّلِ عليه:

في قوله تعالى: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أبهمَ صفاتِ المُفضَّلِ والمُفضَّلِ عليه؛ ليُظهِرَ التّفاوتَ في الرّزق الدّنيويِّ دون ربطِ المُفضَّلِ بالخيريّة أو العكس، فاللّهُ تعالى فَضَّلَ بعضًا منَ النّاس على بعضٍ من غَيْر تعيين الفاضلِ مِنَ المَفضول عليه؛ لأنّ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: في رزق الدّنيا؛ ليتّخذَ بعضُهم بعضًا سُخْريًّا.

لا علاقةَ بين الخيريَّةِ الأخرويَّةِ والتّفضيلِ في الرّزق

معنى حرف الاستعلاءِ ودلالتُه:

استعملَ حرفَ الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ للاستعلاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 63.

المجازيِّ المعنويِّ، فالاستعلاءُ فيه تَمكُّنُ صاحبِ المالِ منَ الأمر والنّهي، ومَن هو دونَه في المال يعملُ لديه دون أدنى تردُّدٍ أو إعراضٍ، وهذا من تسخير اللّهِ تعالى لعباده ضمن سننٍ يَسيرُ عليها الخَلقُ، ويَظهرُ من حرف الاستعلاء جانبُ التّسخير وأهمّيّته في الحياة الدّنيا؛ إذ لولا المُفاضلةُ بين النّاس وتسخيرُ بعضِهم لبعضٍ لما استقرَّت حياةُ النّاس.

تسخيرُ بعضِ النّاس لبعضٍ بسنّة التّفضيل

معنى اللّام ودلالتُها:

اللّامُ في قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ لتوكيد أنّ الآخرةَ هي أكبرُ درجاتٍ، وأكبرُ تفضيلًا منَ الدّنيا، فمهما بلغَ التّفضيلُ بين النّاس في هذه الحياةِ، ورفعَ بعضَهم فوق بعضٍ درجاتٍ، فإنّ درجاتِ الآخرةِ لا يسعُ النّاسَ تصوّرُ تفضيلِها، وعظيمِ شأنِها، وتفاوتِ بعضِها عن بعض.

درجـاتُ الآخـرة عظيمةٌ لا يُتصوَّرُ شأنُها

غرضُ تعريف المُسندِ إليه باللّام:

الغرضُ من تعريف المُسندِ إليه ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ بـ (أل) التّعريف هو إيضاحُ ما لم يكنْ واضحًا للمُخاطَب، وتَبيينُهُ له، فقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ توضِّحُ وتبيّنُ للمُخاطَبين عظيمَ شأن الآخرةِ في المُفاضلة بين النّاسِ، وما سينالُه العاملون على أعمالِهم منَ الفضلِ والجِنانِ والإحسانِ إليهم بعدَ بيانِ تفضيلِ النّاسِ بعضِهم على بعضٍ في الدُّنيا.

بيانُ عظيم شأن الآخرةِ ودرجاتِها وأفضالِها

دلالةُ الإخبار بصيغة أفعل التّفضيل:

في قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾ قد عبَّرَ عنِ المُسند (الخبر) بصيغة أفعل الّتي تدلُّ على المُفاضلة؛ إذ تسمحُ بتفضيل وصفِ شيءٍ على غيرِه؛ أي: تدلُّ على اشتراك شيئين في صفةٍ وزيادة أحدِهما على الآخر فيها؛ فدلَّت هنا على أنّ نسبةَ التّفاضُلِ في درجات الآخرةِ إلى التَّفاضُلِ في درجات الدّنيا كنسبة الآخرة إلى الدّنيا[1].

تفاضُلُ درجات الآخـرةِ لا يتّسعُ لها نطاقُ الفَهم

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 336.

نكتةُ الاستعارةِ التّصريحيّة:

عظيمُ تفاضُلِ المؤمنين كعظيم شأنِ الدّرجاتِ

الدّرجاتُ في قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾ مُستعارةٌ لعظمة الشّرفِ، فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ إذ إنّ الارتقاءَ وعظيمَ الشّرفِ هي كالدّرجات العاليةِ لعلاقة المُشابهةِ بينَهما، والغرضُ من هذه الاستعارةِ تجسيدُ عظيم الشّرفِ بدرجاتٍ مُتفاضلةٍ، والتّفضيلُ: إعطاءُ الفَضلِ، وهو الجِدَةُ والنِّعمَةُ، والمعنى: النِّعمَةُ في الآخرة أعظمُ من نِعَمِ الدّنيا[1]، وإنّ هذه الدّرجاتِ والتّفضيلَ إنّما هو فيما بين المُؤمنين[2].

فائدةُ تَكرار لفظة ﴿أَكْبَرُ﴾:

التّفاوتُ في درجات الآخرةِ لا حدودَ لتصوّرِه

قولهُ تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، ولم يقُلْ: (ولا الآخرةُ أكبرُ درجاتٍ وتفضيلًا)، وسرُّ تَكرارِ كلمة ﴿أَكْبَرُ﴾ المبالغةُ في وصف درجاتِ الآخرةِ، إذ لا يخطرُ ببال أحدٍ ذلك الكِبرُ لتلك الدّرجاتِ، ولكنَّ الأولى منها أكبرُ سَعةً في الدّرجة نفسِها، والثّانيةَ أكبرُ تفضيلًا بين درجةٍ وأخرى، فمهما حاولتَ تصوّرَ معنى ذلك التّفضيلِ، فإنّ كلمةَ ﴿أَكْبَرُ﴾ ستوحي لك بصيغتِها وتَكرارِها أنّ ذلك التّصوُّرَ قاصرٌ عن حقيقة ما قد وُعِدَ المؤمنون يومَ القيامة.

فنُّ بديعِ التّصدير:

أشارَ الباقلّانيُّ إلى هذه الآية في مَعرِضِ توضيحِ التّصديرِ، فقال: ومنَ البديعِ (ردُّ عَجز الكلام على صدرِه)، وهي كقول اللّه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 64.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 458.
(3) الباقلّانيّ، إعجاز القرآن، ص: 93.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»